هذا ما كتبه الفيلسوف جول سيمون في سنة ١٨٩٠ . نقلناه وجعلناه تقدمة لحضرة الفاضل صاحب كتاب « تحرير المرأة » فانه اذا شاء ان يلقي بنفسه في الزوبعة فيكون لمصر « كاميل ساي » آخر و يكل ما بدأ به كتب المؤرخون اسمه بالحرف من ذهب في تاريخ الامة المصرية بل في تاريخ الامم الشرقية

اما باقي التفاصيل التي وردت في هذا الفصل فانا نسلمها الى عقول قومنا خاصتهم وعامتهم فانهم يرون فيها كما اعتاد ان يقول المؤيد الاغر «مثالاً لامة تحيى وامة تموت»

باب الشعر والانشاء

ننشر في هذا الباب تاريخ حياة نوابغ الشعراء المتقدمون والمتاخرين و بعض منتخبات من شعرهم

ابو العتاهية

قال بعضهم : اطبع الناس بشار والسيد الحميري وابو العتاهية .

وابوالعتاهية هو ابو اسحاق اسماعيل بن القاسم العنزي . كني بابي العتاهية في قول لانه كان في بدء امره يحب الشهرة والمجون وفي قول اخر لان الخليفة المهدي قال له يوماً «انت انسان متحذلق منعته » . والمتحذلق من يظهر الحذق ويدعي باكثر مما عنده . والمتعته المتجنن المبالغ في المأكل والملبس

ولد في سنة ١٣٠ هجرية في بلدة صغيرة تدعى عين تمر قرب المدينة وقيل قرب الانبار ونشأ بالكوفة وكان يعمل الجرار الخضر هو واهله . قال بعض معاصريه (انا رأيت ابا العتاهية وهو جرار ياتيه الاحداث والمتأدبون فينشدهم اشعاره فياخذون ماتكسر من الخزف فيكتبونها فيها) وقال له بعضهم (انت جرّار ؟) فقال (انا جرّار القوافي واخي جرّار التجارة)

وكان ابوه القاسم حجاما من اهل ورجة فعير بعضهم ابا العتاهية بذلك فقال

الا انما التقوى هو العزّ والكرمْ وحبك للدنيا هو الفقر والعدم
وليس على عبد تقي نقيصة اذا صح التقوى وان حاك او حجم

ولما قال ابو العتاهية الشعر ورأى اقتداره عليه جاء بغداد ونزل الى الحيرة فاشتهر فيها فبعث الخليفة المهدي في طلبه فامتدحه ابو العتاهية ونال جوائزه . وتعرف ابو العتاهية بجارية المهدي عتبة فجعل يذكرها في شعره فغضب المهدي وامر بحبسه فكتب اليه ابو العتاهية يستعطفه بابيات فرق له وعفا عنه

ولما تولى الهادي اخذ ابو العتاهية خوفاً على نفسه لان الهادي كان ساخطاً عليه لملازمته اخاه هارون ثم استعطفه ابو العتاهية بابيات فارسل اليه الامان واعلى منزلته . ثم توفي الهادي وبويع للرشيد فلزمه وكان لا يفارقه في سفر ولا حضر وقد اجرى عليه الرشيد في كل سنة خمسين الف درهم سوى الجوائز

وكان نفس ابي العتاهية سئمت الدنيا وملاذها والحياة وافراحها فاراد الانقطاع عنها كلها فلبس الصوف وترك منادمة الرشيد ونظم الغزل فسجنه الرشيد . ثم اطلقه فجلس ابو العتاهية يحجم اليتامى والفقراء زهداً في الدنيا (واسقاطاً للكبر عن نفسه) كما كان يقول

وادرك ابو العتاهية المامون فامتدحه بقصائد ثم انقطع عن اصحابه وعاد الى زهده حتى مرض مرض الموت فاتاه بشر ابن الوليد يعوده وقال له ماتشتهي فقال : اشتهي ان يجيء مخارق فيضع فمه على اذني ثم يغنيني

سيعرض عن ذكري وتنسى مودتي ويحدث بعدي للخليل خليل
اذا ما انقضت عني من الدهر ليلة فان غناء الباكيات قليلُ

ولما احس بالموت اخذ يردد قوله :

الهي لا تعذبني فاني مقرٌّ بالذي قد كان مني
فما لي حيلة الا رجائي لعفوك ان عفوت وحسن ظني
وكم من زلة لي في الخطايا وانت عليَّ ذو فضل ومنِّ
اذا فكرت في ندمي عليها عضضت انامليَّ وقرعت سني

وكانت وفاته في خلافة المأمون . قيل كانت سنة ٢١٠ هجرية وقيل سنة ٢١١ وقيل سنة ٢١٣ ودفن حيال قنطرة الزياتين في الجانب الغربي ببغداد . وكان رحمه الله نظيفاً ابيض اللون اسود الشعر له وفرة جعدة وهيئة حسنة . واكثر شعره في الزهد والامثال

وقد ظلمه بعض حساده اذ نسبوا اليه الكفر وعدم الايمان

بالبعث استنادًا الى ان شعره انما هو في ذكر الموت دون ذكر النشور والمعاد ولكن شعر ابي العتاهية حافل بذكر التوحيد والبعث والاقرار بالجنة والنار والوعد والوعيد مما يرد حجة حساده

قال الصولي (كان مذهب ابي العتاهيه القول بالتوحيد وان الله خلق جوهرين متضادين لامن شيء . ثم انه بنى العالم هذه البنية منهما وان العالم حديث العين والصنعة لامحدث له الا الله . وكان يزعم ان الله سيرد كل شيء الى الجوهرين المتضادين قبل ان تفنى الاعيان جميعًا . وكان يذهب الى ان المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال والبحث طباعًا . وكان يقول بالوعيد وبتحريم المكاسب ويتشيع بمذهب الزيدية البترية المبتدعة لا ينتقص احدًا ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان وكان مجبرًا)

ويقال انه كان مع زهده شديد البخل دائم الجوع شحيحًا على نفسه وعلى ذويه وله في ذلك قصص كثيرة مما جعل كثيرين يعتقدون (انه يظهر الزهد ويبطن الزندقة) كما قال ابراهيم بن المهدي في بضعة ابيات

ومن جيد شعر ابي العتاهية قوله من قصيدة طويلة في زوال الدنيا

لدوا للموت وابنوا للخراب ... فكلكم يصير الى ذهاب
لمن نبني ونحن الى تراب ... نصير كما خلقنا من تراب
بـاية حجـة احتج يوم ا ... حساب اذا دعيت الى الحساب
هما امران يوضح عنهما لي ... كتابي حين انظر في كتابي
فاما ان اخلد في نعيم ... واما ان اخلد في عذابي

وجلس في دكان وراق فاخذ كتابًا وكتب على ظهره مرتجلاً

الا اننا كانا بائـد ... واي بني آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم ... وكل الى ربه عائد
فياعجبًا كيف يعصي الاله ... ام كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على انه الواحد

ثم انصرف فمر ابو نواس بالموضع فراى الابيات فسأل عن ناظمها فقيل له ابو العتاهية فقال وددتها لي بجميع شعري

ومن قول ابي العتاهية وهو احب شعره اليه

ليت شعري فانني لست ادري ... اي يوم يكون اخر عمري
وباي البلاد يقبض روحي ... وباي البلاد يحفر قبري

وله في ما وراء الموت

فلو كان هول الموت لاشيء بعده ... لهان علينا الامر واحتقر الامر
ولكنه حشر ونشر وجنـة ... ونار وما قد يستطيل به الخبر

وقال في سكان القبور واجاد

اني سألت القبر ما فعلت ... بعدي وجوه فيك منعفره
فاجابني صيرت ريحهم ... تؤذيك بعد روائح عطره
واكلت اجسادًا منعمة ... كانت النعيم يهزها نضره
لم ابق غير جماجم عريت ... بيض تلوح واعظم نخره

وله يصف قلة فضل اهل زمانه

رأيت الفضل متكئًا ... يناجي البحر والسمكا
فـارسل عينـه لمـا ... رآني مقبلاً وبكى
فلما ان حلفت له ... باني صائم ضحكا

وله في خلوص المودة

ان اخاك الصدق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان صدعك ... شتت فيـه شمله ليجمعك

قال المسعودي: لو لم يكن لابي العتاهية الاهذه الابيات التي ابان فيها صدق الاخاء ومحض الوفاء لكان مبرزًا على غيره ممن كان في عصره

وكتب رجل الى ابي العتاهية

يا ابا اسحاق اني ... واثق منك بودك
فاعفني يا بي انت ... على عيبي برشدك

فاجابه ابو العتاهيه

اطع الله بجهدك ... عامدًا او فوق جهدك
اعطِ مولاك الذي ... تطلب من طاعة عبدك

ومن قوله للرشيد وقد طلب منه ان يصف نعيم هذه الدنيا

عش ما بدا لك سالمًا ... في ظل شاهقة القصور
فاذا النفوس تقعقعت ... في ظل حشرجة القصدور
فهناك تعلم موقنًا ... ما كنت الا في غرور

فبكى الرشيد فقال الفضل بن يحيى البرمكي بعث اليك امير المؤمنين لتسره فحزنته فقال الرشيد دعه فانه رآنا في عمى فكره ان يزيدنا منه

وله قوله

بكيت على الشباب بدمع عيني ... فلم يغن البكاء ولا النحيب
عريت من الشباب وكان غصنًا ... كما يعرى من الورق القضيب
فيا ليت الشباب يعود يومًا ... فاخبره بما فعل المشيب

وابو العتاهية احد الثلاثة الذين ما قدر احد على جمع شعرهم لكثرته . وكان الاصمعي يقول (شعر ابي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى)